﴿قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٣٣﴾ [الحجر: 33]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التَّعريف بحقيقة ما يبطن به إبليس لعنه الله

انساق الكلامُ إلى بيانِ ماذا أجابَ إبليسُ عن سؤال ربِّ العالمين، فَإنَّ مَنْ يَسْمَعُ السُّؤالَ في الآية السابقة يَتَشَوَّقُ لِمَعْرِفَةِ الجَوابِ، وَيُنَزَّلُ مَنْزِلَةَ مَنْ يَسْألُ عَنْهُ، فَيُجابُ، قال كذا وكذا.

المَعْنى الإجماليُّ:

استكبار إبليس على أمر الله، وإبداء العداوة لآدم وذرِّيَّته

قال إبليسُ تكبُّرًا وحسَدًا لآدمَ عليه السلام: لا ينبغي لي أنا - المخلوق من نارٍ - أن أسجُدَ لهذا الجسَدِ الَّذي خلقْتَه من طينٍ يابسٍ لا مَنعة فيه، إذا نُقِرَ؛ أجاب بالتَّصويتِ، أسودَ مُتغيِّرٍ، فأنا خيرٌ منه؛ لأنَّك خلقتَني من نارٍ نافعةٍ بالإشراقِ، مُمتَنِعةٍ ممَّن يريدُها بالإحراقِ، فسُجودي له منافٍ لحالي[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاستئناف البيانِّي في الآية:

استدرارُ سمع المخاطبين للتعريف بأوصاف إبليس

لمّا قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾؛ كان كأنَّ سؤالًا نشأ من السّامع ليسألَ، ويقول: فماذا أجابَ إبليس؟ فقال تعالى: ﴿قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾، فالاستئنافُ مبنيٌّ على السؤالِ الذي انساق إليه الكلام، لاستدرارِ سمعِ المخاطَبين لإكمالِ القصَّة، وللتنبيه على عظمِ الأمر بتحريكِ أذهانِهم للإصغاء لما يتلى[2].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/67، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/26، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص431.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/76.

سرُّ جواب إبليسَ خلاف مقتضى الاستفهامِ:

عـدولُ إبليسَ عـن الـجـوابِ الصَّريح لما هو أقبحُ لاستكبارِه وعنادِه

لمّا كان الظّاهر أن يكون جوابُ إبليس هو عن سبب امتناعِه عن الامتثال، وعن سبب عدمِ مصاحبته الملائكة في السُّجود؛ كان في عدوله عن تطبيق جوابه على السؤال رومٌ للتفصّي عن المناقشة، فعدلَ عن التَّصريحِ، وأجابَ بما هو أقبح وأشنع، بما يدلُّ على استكبارِه وعنادِه، ليكون ما ذكر في جزائه استحقاقًا له، فأجابَ بما يتسبَّب به لعنَه وطردَه، فكأنَّه قال: لم أمتنع عن امتثال الأمر ولا عن الانتظامِ في سلكِ الملائكة، بل عمّا لا يليق بشأني من الخضوع للمفضول، فخذله اللّه تعالى لجريِه على سنن قياس عقيم، وزلَّ عنه أنَّ ما يدور عليه فلَكُ الفضل والكمال هو التحلي بالمعارف الربّانية، والتخلِّي عن الملكات الرَّدية، التي أقبحها الكبر والاستعصاء على أمر ربِّ العالمين ﷻ[(1)].

براعة التَّعبير بنفي الكون في الآية:

تـقـبـيـح رأي إبـلـيـس في التَّعبيرِ عن نفي صحَّة سجودِه لآدمَ بنفـي إمكانِه

لمّا كان المعنى: لا يَصِحُّ مِنِّي أَنْ أَسْجُدَ لِبَشَرٍ؛[(2)] لأنَّ إبليس كان يريد نفي صحَّة سجودِه لآدم، وليس إمكانَ الفعلِ؛ كان نفي الكونِ في قولِه: ﴿قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ﴾ الدالِّ على نفي الإمكانِ أصلًا أبلغَ في نفي إبليس اللَّعين صحَّةَ سجودِه لآدمَ، فكأنَّه قال: (ليس في إمكاني السجودُ لآدم)، لتنتفي صحَّةُ سجودِه، فإنَّ نفي الملزوم يقتضي نفي اللازم، مع أنَّ الواقعَ هو أنَّه كان يقصد نفي صحَّة سجودِه لآدمَ، ولهذا علَّله بقولِه: ﴿لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾.

فائدة اللّام في قولِه: ﴿لِّأَسۡجُدَ﴾:

عـنـادُ إبليس وتكبُّره جرَّه إلى القولِ باستحالةِ سجودِه لآدمَ

اللّامُ هي لام الجحود؛ لِتَأْكِيدِ نفي سجودِه، وهي على معنى الاستحقاق، أي: لا يقعُ منّي السُّجود لآدمَ في أيِّ حالٍ من الأحوالِ،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/141، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/76.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/577، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/361، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/140.

ولا يحقُّ لي أن أسجدَ له، فيستحيل أن أسجدَ لبشرٍ، وهو ينافي حالي، ولا يليقُ بي، فيفيد المبالغة في النَّفي، أي: هذا ممّا لا يمكن وقوعُه أصلًا، وذهب بعضُ النَّحويين إلى أنَّ لامَ الجحودِ هنا لإفادة نفي القصدِ إلى الفعل وإرادتِه، والمعنى: لم أكن قاصدًا للفعل ولا مريدًا له، فيفيد تأكيدَ نفيِ الفعل؛ لأنَّ نفيَ قصدِ الفعلِ أبلغ من نفي الفعلِ نفسِه.

دلالة المصدر المؤوّل في قولِه: ﴿لِّأَسۡجُدَ﴾:

من قبحِ إبليسَ علمُه بإنكارِ الله على عدمِ امتثالِه ثُمَّ العنادُ والاستمرارُ فيه

لامُ الجحود في قولِه تعالى: ﴿لِّأَسۡجُدَ﴾ داخلةٌ على المصدرِ المؤوَّل؛ لأنَّه بتقدير: (لأنْ أسجُدَ)؛ للإيذانِ بأنَّ إبليسَ كان يريد نفي إمكانِ مطلقِ سجودِه لآدمَ من غيرِ نظرٍ إلى طولِه أو قصرِه أو موضعِه أو إلى أيِّ وصف آخر مقيِّدٍ للسُّجود، وللإشعارِ بأنَّه معتقِدٌ بأنَّ نفيَ إمكانِه وعدمَ امتثالِه مستمرّان، وأنَّه لن يسجدَ لبشرٍ، وإنْ علمَ إنكارَ الله على عدمِ امتثالِه؛ لِما تدلُّ عليه (أنْ) الدالَّة على الاستقبالِ مع الفعلِ المضارع.

فائدة التَّعبير بالمضارع في قولِه: ﴿لِّأَسۡجُدَ﴾:

صورة السُّجود امتثالًا لأمرِ الله؛ تشريفٌ، والامتناع استكبارًا؛ من فعلِ إبليسَ

أفاد التعبيرُ بصيغة المضارع تصويرَ الحالة، فكأنَّ إبليس يستنكر أن يكونَ على صورةِ السُّجودِ لآدمَ، فهو يستنكر السُّجودَ، ويستنكر حالتَه، وهو يسجد لآدم.

دلالة التَّركيب في قولِه: ﴿لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ﴾:

استنقاص إبليس لآدم لكونه بشرًا، ولكونه من صلصالٍ من حمأٍ مسنونٍ

لمّا كان هذا الكلامُ من إبليس في سياق إنكارِه السُّجودَ لآدم؛ كان تعبيرُه على سبيلِ الاستنقاصِ لآدمَ باعتبار نوعِه حين قال: ﴿لِبَشَرٍ﴾، ثمَّ زادَ، فذكر وصفَه باعتبار أصلِ خلقته، فقال: ﴿خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾؛ ليكون استنقاصُه للموصوفِ وصفتِه على سبيلِ الاجتماعِ وعلى سبيلِ الانفراد، ولمّا استنقص ما خلقَه الله؛ أفادَ على سبيلِ الكنايةِ استكبارَه واستعظامَه لنفسِه، وفيه

إشارةٌ إجماليَّةٌ في كونِه خيرًا منه، وَقَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، فَقالَ: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦﴾ [ص: 76][1].

براعة التعبير بقوله: ﴿خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ﴾:

بشاعةُ حالِ إبليس؛ إذ استكبر على الله، وهو مستحضرٌ أنَّ الله أمرَه بالسُّجود

أفادَ التعبير بالجملة الفعليَّة ﴿خَلَقۡتَهُۥ﴾ الإشعارَ بغلطِ إبليسَ بأنْ رأى الفضلَ كلَّه باعتبارِ العنصرِ الذي بدأ منه خلقُ البشرِ، وغفل عمّا يكونُ باعتبار الفاعلِ الذي هو مقرٌّ به، كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾، أي: بغير واسطة، كما غفلَ عمّا يكونُ باعتبار الصّورة، كما نبَّه إليه بقولِه: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: 29]، فأجملَ في لفظ ﴿خَلَقۡتَهُۥ﴾ تسويةَ اللّه تعالى للبشرِ، ونفخَ الرّوح فيه، كما غفل اللَّعين عمّا يكونُ باعتبارِ الغايةِ التي خُلِقَ البشرُ لها وهو ملاكُه، ولذلك أمر الملائكة بالسجود له؛ لما تبيَّنَ لهم أنَّه أعلم منهم بما يدور عليه أمر الخلافة في الأرض، وأنَّ له خواصًّا ليست لغيره، وفي التَّعبير كذلك تنبيهٌ إلى عظمِ قبحِ إبليس وبشاعةِ حالِه، لما تؤذن به الجملة الفعلية من أنَّه استكبر، وعاندَ في حال أنَّه كان مستحضرًا أنَّ اللّه تعالى هو الذي خلقَ آدمَ[2].

سرُّ التكرار في الآية الكريمة:

لكلِّ تركيبٍ مقصده، فاللفظ واحدٌ والمقصدُ يختلف

لمّا أخبر اللّه تعالى الملائكة بأنَّه ﴿خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٨﴾ [الحجر: 28]؛ كان إخبارُه لأصلِ خلقِ آدمَ على سبيل التَّشريف والتَّكريم لآدم وبيانِ بديع صنعِ الخالقِ، وأمّا إبليس؛ فكان ذكرُه لأصلِ خلقِ آدم على سبيلِ التَّعليل بخيريَّتِه وأفضليَّته على آدم، ليفيدَ سببَ تكبُّرِه على الائتمار والسُّجود لآدمَ، فَشَتّانَ بَيۡنَ ذِكرِ ذَلك

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/210.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 9/7، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 1/465، والشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/291.

في قَوْلِه تَعالَى لِلْمَلائِكَةِ، وَبَيْنَ مَقْصِدِ الشَّيْطانِ مِنْ حِكايَةِ ذَلِكَ في تَعْلِيلِ امْتِناعِهِ مِنَ السُّجودِ لِلْمَخْلوقِ مِنْهُ، فاللَّفظ واحدٌ والسّياق مختلفٌ، فكان لكلِّ تركيبٍ مقصدُه[1].

سببُ مخاطبة الله تعالى لإبليس:

الخطابُ على سبيل الإكرام تشريفٌ وعلى سبيلِ الإهانةِ إذلالٌ

لمّا أخبر اللّه تعالى عن إبليس قولَه في معرض خطابه مع اللّه تعالى: ﴿خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾؛ دلَّ على أنَّ الخطابَ خطابُ الحضورِ، وليس خطابَ الغيبة، وظاهِرُهُ يَقْتَضِي أنَّ اللّه تَعالَى تَكَلَّمَ مَعَ إِبْلِيسَ بِغَيْرِ واسِطَةٍ، وَأَنَّ إِبْلِيسَ تَكَلَّمَ مَعَ اللّه تعالَى بِغَيْرِ واسِطَةٍ، وَكَيْفَ يُعْقَلُ هَذا مَعَ أَنَّ مُكالَمَةَ اللّه تَعالَى بِغَيْرِ واسِطَةٍ مِنْ أَعْظَمِ المَناصِبِ وَأَشْرَفِ المَراتِبِ، فَكَيْفَ يُعْقَلُ مخاطبة اللّه تعالى لإبليس من غير واسطةٍ، وهو رَأْسُ الْكَفَرَةِ ورئيسُهُم؟ والجوابُ هو أَنَّ مُكالَمَةَ اللّه تَعالَى إِنَّما تَكونُ مَنْصِبًا عالِيًا؛ إذا كانَ عَلَى سَبِيلِ الْإِكْرام والْإِعْظام، فَأَمّا مكالمته مع إبليس؛ فقد كانت على سَبِيلِ الْإِهانَةِ والْإِذْلالِ، كما يوبِّخُ اللّهُ تعالى الكفّارَ يوم القيامة[2].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/46، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/46.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/140، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/211.